بسم الله الرحمن الرحيم

ما أجمل أن نعيش مع كتاب الله تعالى فهو منهاج حياتنا فِيهِ نَبَأُ مَن كَانَ قَبْلَنا، وَخَبَرُ مَن بَعْدَنا، وَحُكْمُ مَا بَيْننا، فتعالوا بنا أيها الإخوة نورد القلبَ شيئاً من أنوار القرآن فنقفُ مع قصةٍ من قصص الحق نستخلص منها الدروس والعبر {فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الأعراف 176] ، ووقائع الله في خلقه ليست مجرد قصص ماضية بل هي عبر ودروس!

نقف مع قصة أصحاب الأخدود، قصة الظلم المتكرر في تاريخ الدعوات، قصة الفداء والتضحية في سبيل الله، قصة تاريخ لا يكذب عن طبيعة المعركة بين المؤمنين والكافرين، وبين الطغاة والدعاة، وبين البغاة والهداة.

نزلت يوم الاستضعاف في الدين يوم كان يأتي الصحابي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يستنصره ويطلب منه أن يدعو الله برفع العذاب عنهم فيأتيه جواب الرسول الكريم:

((لَقَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ لَيُمْشَطُ بِمِشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ عِظَامِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُوضَعُ الْمِنْشَارُ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَيْنِ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَلَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ مَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ)).

وملخص القصة تحكي عن ملك كان لهُ ساحرٌ قد كبر سنه، فقال للملكِ: إني قد كبرتُ، فابعث إليَّ غلامًا أُعلِّمُه السحرَ، فبعث إليهِ غلامًا يُعلِّمُه، وكان في طريقِ الساحر راهبٌ، تعرف إليه الغلام وأخذ يتعلم منه فسمع كلامَه فأعجبَه، وفي يوم مر بدابةٍ عظيمةٍ قد حبستِ الناسَ فقال: اليومَ أعلمُ آلساحرُ أفضلُ أم الراهبُ؟ فأخذ حجرًا فقال: ((اللهمّ إن كان أمرُ الراهبِ أحبُّ إليك من أمرِ الساحرِ فاقتل هذهِ الدابةَ حتى يمضي الناسُ، فرماها فقتلها ومضى الناسُ)) فأتى الراهبَ فأخبرَه فقال لهُ الراهبُ: أي بنيَّ! أنت اليوم أفضلُ مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستُبتلى فإن ابتُليتَ فلا تَدُلَّ عليَّ. وكان الغلامُ يُبرئُ الأكمهَ والأبرصَ ويُداوي الناسَ من سائرِ الأدواءِ، فسمع جليسٌ للملكِ كان قد عمي فأتاهُ بهدايا كثيرةٍ

فقال: ما ههنا لكَ أجمعُ إن أنتَ شفيتني!! فقال: إني لا أشفي أحدًا، إنما يشفي اللهُ. فإن أنت آمنتَ باللهِ دعوتُ اللهَ فشفاكَ. فآمنَ باللهِ فشفاهُ اللهُ.

فأتى الملك فجلس إليهِ كما كان يجلسُ. فقال لهُ الملكُ: من ردَّ عليك بصرك؟ قال: ربي. قال: ولك ربٌّ غيري؟ قال: ربي وربك اللهُ. فأخذَه فلم يزل يُعذبْه حتى دَلَّ على الغلامِ. فجئَ بالغلامِ، فقال لهُ الملكُ: أي بنيَّ! قد بلغ من سحركَ ما تُبرئُ الأكمهَ والأبرصَ وتفعلُ وتفعلُ؟ فقال: إني لا أشفي أحدًا، إنما يشفي اللهُ. فأخذَه فلم يزل يعذبْه حتى دلَّ على الراهبِ، فجئ بالراهبِ، فقيل لهُ: ارجع عن دينك. فأبى. فدعا بالمنشارِ فوُضع المنشارُ على مفرقِ رأسِه فشقَّه حتى وقع شِقَّاه. ثم جئ بجليسِ الملكِ فقيل لهُ: ارجع عن دينك. فأبى. فوُضعَ المنشارُ في مفرقِ رأسِه، فشقَّهُ بهِ حتى وقع شِقَّاهُ. ثم جئ بالغلامِ فقيل لهُ: ارجع عن دينك. فأبى. فدفعَه إلى نفرٍ من أصحابِه فقال: اذهبوا بهِ إلى جبلِ كذا وكذا. فاصعدوا بهِ الجبلَ فإذا بلغتم ذروتَه، فإن رجع عن دينِه وإلا فاطرحوهُ. فذهبوا بهِ فصعدوا بهِ الجبلَ. فقال: اللهم! اكفنيهم بما شئتَ. فرجف بهم الجبلُ فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك. فقال لهُ الملكُ ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم اللهُ. فدفعَه إلى نفرٍ من أصحابِه فقال: اذهبوا بهِ فاحملوهُ في سفينةٍ، فتوسَّطوا بهِ البحرَ فإن رجع عن دينِه وإلا فاقذفوهُ. فذهبوا بهِ فقال: اللهم اكفنيهم بما شئتَ. فانكفأت بهم السفينةُ فغرقوا وجاء يمشي إلى الملكِ. فقال لهُ الملكُ: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم اللهُ. فقال للملكِ: إنك لستَ بقاتلي حتى تفعلَ ما آمرك بهِ. قال: وما هو؟ قال: تجمعُ الناسَ في صعيدٍ واحدٍ وتُصلبني على جذعٍ. ثم خذ سهمًا من كنانتي ثم ضعِ السهمَ في كبدِ القوسِ ثم قل: ((باسمِ اللهِ ربِّ الغلامِ ثم ارمني)) فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني. فجمع الناسَ في صعيدٍ واحدٍ، وصلبَه على جذعٍ ثم أخذ سهمًا من كنانتِه ثم وضع السهمَ في كبدِ القوسِ ثم قال: ((باسمِ الله ربِّ الغلامِ)) ثم رماهُ فوقع السهمُ في صدغِه، فوضع يدَه في صدغِه في موضعِ السهمِ فمات. فقال الناسُ: آمنَّا بربِّ الغلامِ. آمنَّا بربِّ الغلامِ. آمنَّا بربِّ الغلامِ. فأتى الملكُ فقيل لهُ: أرأيتَ ما كنت تحذرُ؟ قد، واللهِ نزل بك حذرك، قد آمنَ الناسُ. فأمر بالأخدودِ في أفواهِ السككِ فخُدَّت، وأُضرمَ النيرانُ، وقال: من لم يرجع عن دينِه فأحموهُ فيها. أو قيل له: اقتحم. ففعلوا حتى جاءت امرأةٌ ومعها صبيٌّ لها فتقاعست أن تقعَ فيها فقال لها الغلامُ: يا أمه! اصبري فإنكِ على الحقِّ....

إنها قصة تحمل معانٍ عظيمة، وفوائد جليلة، لو تفكرت فيها لاستخرجت دروسا في التربية والثقة بالله، وتصحيح كثير من المفاهيم الخاطئة، فمن هذه الدروس ...

أولا: أهمية تربية الأبناء

فبطل هذه القصة غلام كما وصفه النبي صلى الله عليه وسلم غلام آمن بالرحمن، وأصر على إبلاغ الحق ولو بذل من أجل ذلك روحه رخيصة حتى آمن على يديه أبناء قومه.. وهذا ملمح يجعلنا نهتم بتربية أبنائنا وتنشئتهم تنشئة إيمانية صحيحة عسى أن يكون منهم من يجدد لأمتنا دينها، أو يقودها للنصر على أعدائها.

ثانياً: الإصرار على تبليغ دعوته : فقد أنجى الله الغلام من الموت مرتين، وفي كل مرة يعود إلى الملك بنفسه ليبلغه الحق ويدعوه للإيمان، لم يهرب ولم ينسحب، بل أخبره بنفسه عن السبيل الوحيد لقتله، فأسلم نفسه للموت والقتل من أجل إظهار الحق.. إصرار عجيب على الدعوة، وإصرار على إظهار الحق، وإصرار على تحدي الباطل، خصوصا وليس في الميدان غيره، وهي رسالة لكل مسلم في دول الغرب، تحديات الواقع وظروف الحياة صعبة فعليك التحمل لتبليغ دعوة الله ودينه وإياك والهروب أو التراجع...

ثالثا: تعليق نفوس المدعوين بالله وحده: فقد كان الغلام ممن يبرئ الأكمه والأبرص ويشفي المرضى بإذن الله.. وكان إذا طلب منه أحد الشفاء قال: [أنا لا أشفي أحدا، إنما يشفي الله تعالى، فإن آمنت به دعوته لك فشفاك] وذلك حتى لا تتعلق القلوب بغير خالقها، وحتى لا ننقل الناس من عبادة الفرعون إلى عبادة الكاهن، وننقل الإلهية من الملك إلى الشيخ، وحماية للعقول من أن تنتقل من تعظيم الحق إلى تقديس الشخص، فإذا اهتدى اهتدوا بهداه، وإذا زاغ أو ضل أو زل زاغوا بزيغه وضلوا بضلاله .

رابعا: الثقة التامة بالله تعالى: فعندما أمر الملك زبانيته بأخذ الغلام وإلقائه من فوق الجبل ـ إن أبى الرجوع عن دينه، فكان دعاؤه: ((اللهم اكفنيهم بما شئت وكيف شئت))، ثقة كاملة بالله، واستغناء كامل بقدرته، وتوكل تام عليه وحده.. فليس هناك أسباب إلا الدعاء، وليس ثمة باب مفتوح أمامه إلا باب الغالب الوهاب، فسلم له النفس ووكل إليه الأمر يدبره بقدرته

خامسا: تصحيح مفهوم الانتصار والخسارة:

فالخسارة الحقيقية ليست في موت الداعية، وإزهاق الظالمين لنفوس المؤمنين، وإنما الخسارة الحقيقية أن ترتد عن دينك، وأن تتخلى عن مبادئك، أو تتنازل عن الحق، أو تهادن الباطل

كما أن الانتصار ليس في سلامة الأبدان، وصيانة الأموال، وحفظ المراكز، وإنما الفوز الكبير هو أن تعيش

إن عشت على الإيمان، وتثبت عند الموت على الإسلام، وأن يؤمن الناس بدعوتك حتى وإن كان سبيل إيمانهم أن يمروا على جثتك.. لقد مات الغلام ولكن آمن القوم، وقتل القوم وحرقوا ولكن كانوا ثابتين على إيمانهم؛ فأدخلهم الله الجنة، وشهد لهم بأنهم فازوا الفوز الكبير {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات}

سادسا: الدعوات لا ينصرها إلا التجرد الكامل والخروج عن حظوظ النفس، ومكاسب الحياة؛ لقد قال الشيخ لتلميذه: [أنت اليوم خير مني وإنك ستبتلى. فإن ابتليت فلا تدل علي]. وخُيِّر التلميذ بين حياته وبين دعوته فاختار بمنتهى الأريحية أن يموت هو لتحيا دعوته، بل هو الذي يطلب الموت بذاته لذاته [إنك لن تسلط على حتى تفعل ما آمرك به] ثم يخبره عن الطريقة التي يقتله بها!!!

أيها الشباب انظروا اهتمامات هذا الغلام الصغير، تمسك بالدين ودعوة إليه؛ وتضحية حتى بالنفس من أجله، ويا للأسف من اهتمامات بعض شبابنا هذه الأيام